الإبداع الحقيقي يكره الضجيج

فاضل السلطاني

أكثر الاحتجاجات الصاخبة التي أثارتها القائمة القصيرة لـ"جائزة بوكر العربية"، استندت عموماً إلى أساس واه يكشف حجم الخراب الذي وصلت إليه الثقافة العربية. فقد تفاجأ هؤلاء، وضمنهم نقاد معروفون، بأنهم لم يسمعوا في الأقل بأربعة من ستة أسماء ضمتها القائمة. وبدلاً من معالجة هذا النقص الخطير في المعرفة الأدبية والنقدية من أناس مهمتهم البحث عن الجديد، وكشفه، وتقديمه للقارىء، لجأوا إلى أسهل الحلول: التشكيك بمصداقية لجنة الجائزة، لأنها تجاهلت" كثيراً من الأسماء الشهيرة"!

ولكن كيف تصنع الشهرة عندنا؟ ومتى كانت أماً حقيقية للإبداع؟

لقد أصبحت الشهرة في الغرب منذ أمد طويل، صناعة كاملة لها مهندسوها وقوانينها وقواعدها وأصولها أيضا، بمعنى أنها مبنية على أسس واقعية، ومنها تنطلق، فقلما نجد كتابا مشهورين هم غير مبدعين حقا، فلا أحد يراهن على حصان خاسر. وبالطبع هناك مبدعون كبار لم تتوفر لهم أسباب الشهرة لأنهم يفتقدون وجود ماكينة إعلانية وإعلامية تروج لأعمالهم.

أما في البلدان العربية، وفي حالات كثيرة، فإن ظاهرة الشهرة تبدو وكأنها بلا أساس واقعي، ويرجع الفضل فيها إلى الزمن أو الإشاعة في مجتمعات كل شيء فيها عمودي. ومع غياب النقد تكبر هذه الإشاعة وتغطي على ما سواها، حتى تصبح الثقافة الوطنية في بلد ما ممثلة في أشخاص معينين، لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة. إنك تجدهم، إياهم أينما ذهبت: في المهرجانات والندوات يحاضرون ويفتون في كل شيء، وفي مختلف الاختصاصات: فكرا ونقدا وشعرا وقصة ورواية. ظاهرة عربية أخرى بامتياز! ولأن نسبة كبيرة من ثقافتنا هي ثقافة شفاهية، فإننا، على سبيل المثال، نختصر حركة شعرية كاملة في بضعة شعراء كرسهم الزمن أكثر مما كرسهم النقد فبتنا لا نرى غيرهم، ونختزل الإبداع الروائي والقصصي في بلد عريق بكاتبين أو ثلاثة يجيدون أكثر من غيرهم فن العلاقات العامة كما يجيدها أي مختص في هذا الفن المعاصر، بينما يذوي المبدعون الحقيقيون في صمت، وبينهم كتاب كبار بحق.

لقد قالت مرة الشاعرة الأميركية اميلي ديكنسون، التي ماتت من دون أن تنشر شيئا من شعرها، إن الشهرة مزاد العقل. وهي تعني أن السعي الحميم وراء الشهرة، إذا صار هدفا بحد ذاته، لا بد أن يكون على حساب الإبداع الحقيقي، الذي يحب الصمت بطبيعته ويكره الضجيج، وبذلك يتحول النشاط الإبداعي الإنساني إلى بضاعة تتحدد قيمتها حسب قوانين السوق.

قالت اميلي ديكنسون هذه الحكمة البليغة في نهايات القرن التاسع عشر، ولا تزال محتفظة بصحتها، بل أنها تصح على عصرنا هذا أكثر مما تصح على ذلك القرن التنويري، وتعبر تعبيرا دقيقا عن المرحلة التي نعيش، والمنطقة التي نعيش، حيث نجد عشرات الأمثلة المزدهرة في سوق الثقافة العربية، حيث وسائل إعلام يستنسخ بعضها بعضا، ومؤتمرات ومهرجانات تنتهي كما بدأت في ظاهرة بدأت تنتشر سريعاً مثل العدوى في بلدان عربية كثيرة، متحولة فعلاً إلى مزادات حقيقية للمعرفة والعقل.

لقد قالت مرة الشاعرة الأميركية اميلي ديكنسون، التي ماتت من دون أن تنشر شيئا من شعرها، إن الشهرة مزاد العقل. وهي تعني أن السعي الحميم وراء الشهرة، إذا صار هدفا بحد ذاته، لا بد أن يكون على حساب الإبداع الحقيقي، الذي يحب الصمت بطبيعته ويكره الضجيج، وبذلك يتحول النشاط الإبداعي الإنساني إلى بضاعة تتحدد قيمتها حسب قوانين السوق.

في حوار مع الروائي محمود سعيد:

المؤسسات الدستورية هي من تتيح ازدهار الثقافة وترسيخها

شهدنا طيلة عقود طويلة خضوع الفكر والشعر والقصة والفلسفة لسياسات حمقاء متطرفة وعبثية ولا إنسانية.

أن أهم وأكبر عقبة تقف أمام المثقف العراقي امتناع الدول العربية عن منحه تأشيرة لحضور المناسبات الثقافية الرائدة والمتطورة، والكل يعرف أسباب هذا المنع والتهميش. ويحدو الروائي العراقي محمود سعيد الأمل في رؤية يوم يستطيع فيه المثقف العراقي الذهاب بجوازه إلى أي بقعة في العالم ليحضر احتفالات ومناسبات ثقافية وأدبية وفنية، كما يتمنى أن يقوم معرض كتاب سنوي في بغداد، تقوم فيه نشاطات، وورش أدبية، ومحاضرات، ولقاءات، وإلقاءات، وقراءات الخ. الروائي العراقي الكبير محمود سعيد روائي وقاص عراقي حاز على العديد من الجوائز وكتب اكثر من ثلاثين رواية.

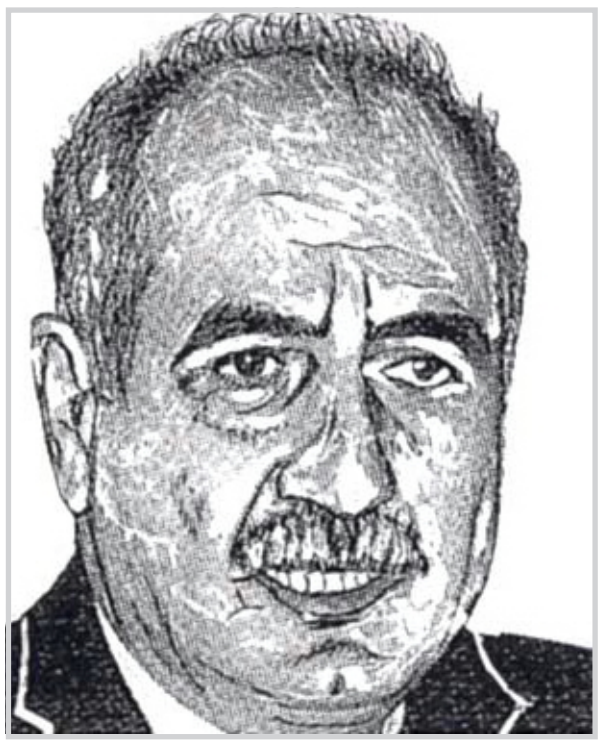

محمود سعيد

حاوره: مازن لطيف

المدى حاورت الروائي محمود سعيد المقيم في شيكاغو:

❖ *قليل من المثقفين العراقيين صنعوا أنفسهم ، واغلبهم صنيعة أحزاب سياسية..ما هو تقييمك لهذه الظاهرة في العراق؟*

– هذا شيء طبيعي، لأننا لم نتذوق طعم الحرية في تاريخ العراق الحديث قط، باستثناء المدة القصيرة التي أعقبت ثورة ١٩٥٨، إن طبيعة سياسة الحكم في العراق لا تقبل بالرأي الآخر مطلقاً، وهذا ينطبق على الأوضاع السياسية منذ قيام الدولة الوطنية سنة ١٩٢١ وإلى حد الآن باستثناء مدة قصيرة كان فيها الحاكم عبد الكريم قاسم، فعلى سبيل المثال مدح الجواهري الكثير من رجالات العهد البائد كالملك فيصل الأول ونوري السعيد وعبد الإله، وكثير من الوزراء، وعندما تغير الوضع تغير هو أيضاً فمدح عبد الكريم قاسم بطل الثورة، ثم مدح اكثر أعدائه عداء مثل أحمد حسن البكر وصدام حسين وصالح مهدي عماش. لقد كان تأييد الحزب الحاكم للأديب ضرورة واقعية لا غنىً عنها قط، لما يجلبه ذلك التأييد من رضا ودعم مادي يؤهل الأديب للعيش والحياة حياة طبيعية، وكان الخروج على السياسة الرسمية للدولة يعني المعارضة، والمعارضة تعني سخط الدولة، وسخط الدولة يعني حجب الدعم المادي، أي ضنكاً في العيش، وعزلة أدبية قاهرة. ومن هنا نشأت جدلية مهمة ظاهرة للعيان هي دعم من قبل السلطة للأديب مقابل خضوع الأديب لرغبات السلطة وتنفيذه وصاياها وأوامرها.

شهدنا طيلة عقود طويلة خضوع الفكر والشعر والقصص والفلسفة لسياسات حمقاء متطرفة وعبثية ولا إنسانية، وهذا يعني أن نتاج تلك العقود موبوءة بالعقم إلا ما رحم ربي.

لكن هذا لا يعني عدم ظهور استثناء. نهض أدباء وشعراء ومبدعون وفنانون اعتمدوا على أنفسهم في بناء إبداعهم، لم يلجؤوا إلى الدولة قط، ولم يستجدوا معونتها، أنتجوا أدباً حياً جيداً فعالاً، لكنهم عانوا معاناة قوية، وجاء تطورهم بالإبداع على حساب راحتهم واستقرارهم، هذا النوع من المبدعين، قلة مع الأسف الشديد في العراق قديماً وحالياً.

❖ هل يمكننا الحديث عن ظاهرة المدينة – الدولة بالارتباط مع نزعة الانعزال المذهبي والثقافي؟

– المدينة والدولة ظاهرتان متطورتان في تاريخ البشرية، وقد ظهرتا في العراق في وقت مبكر جداً قياساً لما هو موجود في المناطق الأخرى من العالم، وهذا يعني بالضرورة أن يتواكب بناء المدن مع إقامة المؤسسات الحضارية، لأن المدينة تحوي أعداداً كبيرة من البشر، ولا يمكن أن يستقر للبشر قرار من دون مؤسسات تحميهم وترعاهم وتشعرهم بالأمن والسلم والازدهار. ظهور مدينة ما في أي مكان في العالم يعني خطوة إلى الأمام في طريق التطور والتحضر، يعني توديع ونبذ البداوة والتخلف، وظهور المدن في العراق قبل غيره يعني فيما يعني أن في العراق مقومات تساعد لا على إقامة تلك المؤسسات بل ازدهارها ونجاحها. لكن التداعيات المتلاحقة التي حدثت بعد إقامة الدولة العراقية لم تمكن الشعب العراقي من مسؤولين وغير مسؤولين من إنجاز مؤسسات دستورية تتيح ازدهار الثقافة وترسيخها، وهذا يقود بالضرورة إلى فشل ذريع في تحقيق أهم ما يطمح إليه الإنسان الواعي وهو تجاوز التخلف، ظلت الحالة الثقافية في العراق مترددة، شبه ميتة، تراوح في مكانها بينما العالم الخارجي يتقدم إلى الأمام بوتائر مختلفة. العراق بلد متعدد الأصول، والأعراق، والأديان، ففيه العربي والكردي والتركماني والآثوري والآرامي واليزيدي وفيه المسلم والمسيحي واليهودي وبلد مثل هذا متعدد القوميات والإثنيات يمكن أن يكون مثلاً أعلى للتآخي والتسامح والازدهار، كما كان في العهد العباسي. إن الفشل في بناء عالم متحضر إنساني أعاق الجهود لإيصال العراق الحالي إلى أخذ مكانه الطبيعي في العالم وبذر فيه بذور التخلف. والتمزق، فسادت النزعات الطائفية والعرقية والإثنية وتدهورت الحالة المدنية، فمحي الأمن وتعذر تحقيق أدنى متطلبات الحياة. وهذا يعني بالأساس أن الانعزال الطائفي والقومي والديني المشاهد هو ظاهرة شاذة لابد من إنهائها.

❖ *المثقف قوة مؤثرة داخل المجتمع ترى هل نستطيع أن نعول على دور المثقف في رسم حياة وحضارة جديدتين في العراق؟*

– في كل مجتمع توجد ثلاث شرائح تسيطر عليه وتقود خطاه في الحياة، هي: المثقف، العسكري، رجل الدين. وقد يختلف الترتيب حسب رقي وتطور المجتمعات.

ففي النوع الذي يسيطر العسكري فيه على المجتمع ينسحب المثقف ورجل الدين إلى الظل، ويصبحان مهمشين ومحدودي التأثير، في مثل هذه المجتمعات تسود أنظمة ديكتاتورية شاذة تختلط فيها المقاييس وتضطرب فيها القوانين. فتنحط المجتمعات وتتدهور القيم الثقافية والأخلاقية، لكن هذه المجتمعات التي لا تنعم بالتطور الثقافي تنعم بنوع من المسالمة الاجتماعية لسيطرة القوة الغاشمة التي تحقق مجتمعاً آمناً للجميع بالرغم من تشوهه.

ولا يمكن لشعب أن ينهض إلا إذا طبق نظاماً دستورياً معاصراً، وتطبيق نظام دستوري معاصر يعني بناء مؤسسات الحكم الديمقراطي.

لذا فلا سبيل إلا في سيادة وحكم المثقف.

ولذا نرى المجتمعات الحديثة كالمجتمعات الأوربية بما فيها أمريكا، نراها تقف في أعلى سلم الرقي لأنها تطبق نظاماً ديمقراطياً يقوم على تمكين المؤسسات الدستورية من أداء دورها. والديمقراطية تعطي المثقف الدور الرئيس في البناء والتوجيه، هذا لا يعني وجود غير مثقفين في مراكز المسؤولية، فهم موجودون دائماً وأبدا، لكن المثقف هو الذي يبت في كثير من الأمور، لأنه يسيطر على وسائل إعلام لا حد لها، كالقنوات التلفزيونية ومحطات الراديو والصحف الورقية والرقمية الخ، ولهذا يستطيع أن يسير المسؤول الذي يختلف معه في الرأي، ويستطيع أن يفرض رأيه لأنه يوضح للجماهير الفاعلة طرق التطور والازدهار، إن ما نطمح إليه نحن العراقيين هو سيادة قوانين ومؤسسات ديمقراطية في العراق يقودها المثقف لخلق بلد مزدهر متطور.

❖ *ما هي انطباعاتك عن معرض القاهرة واقصد بذلك مدى حضور الكاتب العراقي والاهتمام به؟*

– معرض القاهرة الدولي معرض عالمي أحرص على حضوره إن تمكنت كل عام. هذه هي المرة الرابعة التي يحالفني الحظ في زيارته. المعرض واسع جداً ويشارك فيه ناشرون من جميع أنحاء الوطن العربي باستثناء العراق مع الأسف الشديد لأني كنت متلهفاً على تصفح الكتب العراقية التي صدرت في الفترة الحالية في العراق وفي الماضي أيضاً. لقد كان للعراق دور كبير في نشر الكتاب الحديث في عموم الدول العربية، وترجم العراقيون أعمالا أدبية كثيرة وكبيرة في العقود الماضية، كما نشرت فيه كتب تراثية عديدة محققة بعناية ودقة وتمكن.

هناك أحداث جليلة تحدث في معرض القاهرة السنوي، إذ يخطط مهيئو المعرض ندوات تتعلق بالكتاب في معظم أجنحته، وهناك قاعات كبيرة يلقي فيها المثقفون محاضرات عن الحركة الثقافية في العالم كله بما فيها عن العراق. ففي كل سنة تنظم ندوات متعددة يناقش فيها المشتركون قضايا الثقافة في العالم، ومن المستحيل على أي كان أن يحضر هذه الندوات كلها لأنها تجري في وقت واحد، إذ أنها تعقد بتزامن بعضها البعض الآخر، فعلى سبيل المثال هناك غير ندوة مستمرة طيلة اليوم فإن أعجبك أن تسمع محاضرة عن الرواية الفرنسية، على سبيل المثال، فهذا يعني أنك ستحرم نفسك من سماع محاضرة عن تطور الشعر المعاصر في المغرب، وهكذا.

ولا يقتصر الحضور على دور النشر العربية بل تحضر أيضاً بشكل دائم دور نشر أمريكية وأوربية متعددة، فهناك جناح لأمريكا، ومثله لفرنسا، وآخر لألمانيا الخ.

وعادة ما تجري حفلة توقيع بعض الكتب حيث يتواجد المؤلفون في المعرض، ومن العراقيين الذين ساهموا في المعرض الصديقان عدنان الصائغ، والشاعر سعدي يوسف وغيرهما، إذ جرت حفلات توقيع بضعة دواوين وروايات. إن معرض الكتب في أي دولة عبارة عن مهرجان ثقافي وفكري مهم جداً للشعب، للدولة، للمثقف، للجميع.

ولابد من الإشارة إلى أن أهم وأكبر عقبة تقف أمام المثقف العراقي امتناع الدول العربية عن منحه تأشيرة لحضور أمثال هذه المناسبات الثقافية الرائدة والمتطورة. وكلنا يعرف أسباب هذا المنع والتهميش. ويحدوني الأمل في رؤية يوم يستطيع فيه المثقف العراقي الذهاب بجوازه إلى أي بقعة في العالم ليحضر احتفالات ومناسبات ثقافية وأدبية وفنية، كما يحدوني الأمل في أن يقام معرض كتب سنوي في بغداد، تقوم فيه نشاطات، وورش أدبية، ومحاضرات، ولقاءات، وإلقاءات، وقراءات الخ، عندئذ ستكون تلك أسعد لحظة في حياتي. وما ذاك في نظري ببعيد.

متابعات

احمد الثائر

ليالي بغداد
معرض شخصي
مؤيد البصام

ليالي بغداد..في قاعة مدارات

احتضنت قاعة مدارت للفنون المعرض الشخصي التاسع للفنان مؤيد البصام المتعدد الاشتغالات الابداعية فيتوزع همه الابداعي بين القصة والمقالة والنقد.. تميزت اللوحات التي نفذت بالزيت بانها اقرب الى البوستر السياسي في موضوعة لا تزال ساخنة حيث البحث عن الامن والطموح نحن الافضل.

المؤتمر الثامن لمركز حوار الحضارات

عقد مركز حوار الحضارات المنبثق عن مركز دراسات العراق مؤتمره الثامن على قاعة ملتقى المستقبل الثقافي في يوم الاثنين ٢٠٠٨/٣/٣ وضم ثلاثة محاور الاول كان بخصوص العراق كونه جزءاً مؤثراً ومتأثراً بمحيطيه الاسلامي والعربي اما المحورالثاني فكان حول عودة العراق فاعلاً ومؤثراً بوجوده الانساني والحضاري. اما المحور الثالث فكان مطالبة بخروج العراق من البند السابع كضرورة لعودة سيادته كاملة على ارضه وثرواته. ادار المؤتمر الزميل يونس العراق وحاضر فيه كاظم القريشي وسعد مطر عبود وتداخل الحضور بطروحات تهم الموضوع.

يوم المرأة في اتحاد الادباء

لمناسبة الثامن من آذار عيد المرأة العالمي اقام الاتحاد العام للادباء والكتاب في العراق جلسة ثقافية للاحتفال بالمناسبة حيث قرئت القصائد والقيت الكلمات من الادباء والاديبات. قدم لهذه الاحتفالية الشاعر مروان عادل والشاعرة منى سبع والاحتفالية من نشاطات منتدى نازك الملائكة الذي ترأسه القاصة ايناس البدران.

رواية (القرية) في ملتقى الاهالي الثقافي

اقام ملتقى الاهالي الثقافي العراقي جلسة احتفالية لمناسبة صدور النسخة العربية لرواية (القرية) التي كتبها الروائي محمد سليم سواري باللغة الكردية وترجمها سامي الحاج وذلك على قاعة الملتقى المذكور وتجدر الاشارة الى ان هذه الجلسة التي اقيمت يوم السبت ٢٠٠٨/٣/١ هي باكورة اعمال الملتقى وادار الجلسة الصحفي والشاعر عبد الهادي فنجان الساعدي وقرأ فيها مقالات تخص الرواية الناقد علوان السلمان وحضر الجلسة الاستاذ هفال زاخوي رئيس تحرير الزميلة (الاهالي) وعدد من الشخصيات الثقافية.

الثقافة مؤامرة.. الخلاف جنائياً

علي حسن الفواز

نشرت مجلّة (الآداب) البيروتية في افتتاحية عددها الأخير (٦/٥) مقالاً كتبه السيد سماح إدريس رئيس تحريرها، حمل الكثير من الشكوك والريبة والأسئلة غير الثقافية حول مهرجانات المدى الثقافية، والمساس غير الثقافي أيضاً بالشخصية المعنوية للاعلامي العراقي فخري كريم المسؤول عن تنظيم هذه المهرجانات، حتى بدت مجلّة (الآداب) التي أسّست لتكون صاحبة التقاليد والدروس، تعزف النغمة ذاتها التي تعزفها الشوارع القومية الخلفية باتجاه العراق ما بعد سقوط الديكتاتورية.

لا أظن أن العمل الثقافي مهما كان بريئاً في النيّات، يخلو من أخطاء وأحيانا خطايا تقع هنا وهناك! ولا أحسبه كذلك بعيداً جداً عن حسابات أو سياسات أو مصالح معيّنة، لكن فضيلته الكبرى أنه يضع الثقافة في المقدّمة، وأنه يتجاوز الأراضي الحرام ما بين السياسي والثقافي في فضاء الحرية الوليد. وأحسب أن مهرجانات المدى واحدة من فضاءات هذا العمل الثقافي لها ما لها وعليها ما عليها، وأن التشكيك العلني فيها (من أسماء وأجندات معيّنة)، هو تجنٍّ قصدي يدخل في السياسي الفصيح أكثر من دخوله في الثقافي المزعوم. وأعتقد أن الحوار، حتى لو كان ساخناً، هو شرطنا لتفكيك مفهوم (المؤامرة) الذي يسكننا برعب، فضلاً عن توسيعه هامشنا، نحن المنتهكين حدّ الروح، وإيجاد مناطق نطمئن فيها إلى جلودنا من كلامنا.

أنا شخصياً ضد توصيف الخلاف الثقافي جنائياً، واللجوء الى المحاكم لإعادة إنتاج العلاقات داخل الفضاء الثقافي، لكني أيضاً ضد القدح الذي يتجاوز الثقافي الى الجنائي، والذم والتشكيك اللذين يضعان الشخصية المعنوية للمثقف، مهما كان توصيفها، في خانة جنائية يكون الحوار معها حواراً يفتقد شرطه الإنساني والمهني والابداعي. فهل كان سماح إدريس موفّقاً في مقاله الجريء؟ وهل تجاوز تاريخ مجلّة (الآداب) التي ورثها، ليدخلها، مرّة أخرى، في صراعات موروثة انتهى عصرها القومي القديم، حيث تُنصب مشانق الاستعلائيين باسم العرق المتفوّق بخلوده، لكلّ من تفوه بكلمة تشذ عن خط الصنمية الجديدة؟!

القضية لا تتعلق ببراءة أحد من أحد، ولا أن يوظّف بعضنا هذه الصناعة في إنتاج مدافع ثقافية لمحاربة أعداء مجهولين، لكنّهم معلومون جداً! كما إنها لا تتعلّق بحسابات تدخل في مجال الترويج لخطاب سياسي له توصيفاته المختلفة.. القضية أننا نوظّف الثقافي لغيره، وأننا نضع مزاجنا وحساسيتنا وحساباتنا التي تختلف جداً، وأظنها لم تكن واضحة، في إطار يفقد التشخيص الثقافي دقّته، فضلاً عن تحميل الأمور أكثر مما تحتمل. وإزاء هذا، أجد أن تحميل السيد فخري كريم هذه الحمولة، وهذا التشكيك وبهذه القسوة، يعني أن الكثيرين لديهم تهم جاهزة تصلح لتعطيل أية خطوة أو مبادرة، أولّها الخيانة والعمالة والتشكيك بالذمة، وهي تهم أخلاقية يقبلها العقل العربي المتداول دونما أسئلة أو مراجعة أو حتى أدلّة..

من حق الناس أن تختلف، لكن ليس من حقها أن تتجاوز هذا الحق، والحرّية كما علّمونا تبدأ حيث تنتهي حرّية الأخرين.

عن مجلة الاسبوعية-العدد ١٢